

أقدم رحالة أوروبي دخل مكة المكرمة

صلاح الدين المنجد

كانت محاولة اكتشاف اسرار الجزيرة العربية ، بصورة عامة ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، بصورة خاصة ، امنية تمنها كثير من الرحالة الأوروبيين النصارى . فاستطاع عدد كبير أن يحقق امنيته ويدخل مكة والمدينة ، فبعضهم اسلم ودخلوا مسلمين ، وبعضهم تخفى بملايس مستعارة وادعى الاسلام .

وأقدم رحالة أوروبي دخل مكة هو (لودفيكودى فارتيمبا)

LUDOVICO DE VARTHEMA . وهو ايطالى من مدينة بولونيا الايطالية .

وعندما عاد الى ايطالية نشر باللغة الايطالية وصفا مطولا لرحلته التى شملت مصر ، والشام ، والحجاز ، واليمن ، وجزائر الهند . وصدرت باسم :

ITINERARO DI LUDOVICO DE VARTHEMA

وقد طبعت عدة مرات ، كان آخرها سنة ١٩٢٨ ميلادية (١٣٤٧ هـ) فى مدينة ميلانو .

وقد نقلت الى لغات أوروبية مختلفة ، ولم تنقل الى اللغة العربية . وكان الأب هنرى لامنس الوحيد الذى نوه بهذه الرحلة ، ونقل بعض مافيهما ، فى عام ١٩٢٠ ميلادية (١٣٤٩ هـ) أى قبل خمسين سنة ونيف .

لايعرف الكثير عن هذا الرحالة الايطالى . ويبدو انه كان يحب المغامرة . فركب البحر من البندقية فى ايطالية ، وكان فى الثلاثين من

عمره تقريباً ، قاصدا سلطان مصر يومئذ قانصوه الغورى ، الذى تولى السلطنة سنة ٩٠٦ هـ . وبه انقضت دولة الجراكسة على يد السلطان سليم العثمانى سنة ٩٢٢ هـ .

اقام لودوفيكو فى القاهرة مدة قصيرة ، وانتقل منها الى بيروت ، ثم تركها الى حلب ماراً بطرابلس . ومن حلب انتقل الى دمشق . فأقام بها يتعلم العربية . وكان امير دمشق يومئذ قانصوه البرج .

وفى دمشق بدأ تحقيق المغامرة لزيارة مكة المكرمة . فقد كان موعد سفر قافلة الحج قد اقترب . وكان لهذه القافلة أمير هو امير الحج وقائد فرقة من الحرس ، يحرسون القافلة من هجمات البدو والاعراب فى الطريق . فاتصل لودوفيغو بقائد الحرس ، وهو من المماليك ، ودفع له مبلغا جسيما من المال ، وطلب أن يسمح له بمرافقة القافلة ، فقبل . فأعطاه لباس فرقة حرس المماليك ، فتزايبها وتسمى باسم يونس .

وفى يوم ٨ ابريل ١٥٠٣ غادر دمشق مع القافلة . ويحدثنا أن عدد الحجيج كان من دمشق أربعين الفا . وكان معهم ستون رجلا من المماليك لحراستهم .

سارت القافلة متبعة منازل الحج الشامى المعروفة يومئذ . وقد هاجمها البدو فى الطريق ، مطالبين بحق المرور من اراضيهم ، أو ثمن مياه آبارهم .

واجتازت القافلة ماسماه (بحر الرمل) ، وكانت الريح تنير غمام الرمال الكثيفة ، حتى ان احدهم لم يكن يرى رفيقه على عشر خطوات ودخلوا المدينة . وكان لودوفيغو يود أن يتحقق من وجود قبر الرسول . لأنه فى ايامه كان فى اوروبة خرافة مشهورة ، متداولة منذ القرون الوسطى ، تزعم ان قبر الرسول فى المدينة معلق فى الهواء

بفضل جاذبية قطعة عظيمة من المغناطيس . فرأى بأم عينيه قبر الرسول
الكريم فى مسجده النبوى وقال : ,,لقد شاهدت قبر محمد فى المدينة,,.

وأقاموا فى المدينة ثلاثة أيام . وانتقلوا بعدها الى مكة . فوصلوا
اليها يوم ٤ ايار ، اى قضا فى الطريق ما بين دمشق ومكة شهرا .
وصف رحالتنا مكة فقال : انها مدينة غاية فى الجمال . كثيرة
السكان ، تعدّ نحو ٦ آلاف بيت . منازلها حسنة كمنزلنا . اما اميرها
فهو من أسرة محمد . متعلق بسطان مصر . وله ثلاثة اخوة لا يفتأون
يحاربونه . وما يحيط بمكة قاحل لا ينبت شجرا ولا عشا ، لفقدان الماء
وجميع المواد الغذائية تأتى اليها من القاهرة . قال : وشاهدنا من
الحجاج فى مكة من اتوا للتجارة . (ص ١٠٩) .

ويصف المسجد الحرام فيقول : هو هيكل جميل جدا ، يذكر بيناء
الكوليزه فى رومية ، وان لم يكن مبنياً بمثل حجارته ، بل هو مبنى من
اللبن وعلى بابه يقف باعة الحلى . وفى داخله تحت القناطر ، أربعة أو
خمسة من باعة الطيب . وهواء المسجد مثقل برائحة المسك وغيرها
من العطور اللطيفة . وهو مكشوف الصحن . وفى وسطه برج (أى الكعبة)
مغطى بستار من الحرير الأسود . وعلى علو قامة الرجل باب من
الفضة الخالصة يدخل منه الى داخل البرج .

ووصف الطواف حول الكعبة فقال : اخذ جميع الحاضرين يطوفون
سبع مرات حول البرج المذكور ، ويلمسون ويقبلون كل زاوية من
زواياه . قال : واذا سرت اثنى عشرة خطوة من البرج رأيت بثرا (أى
زمزم) فيها ماء مالح . وحولها ستة أو ثمانية رجال يسقون الحجاج .
فاذا تم الحجاج طوافهم سبع مرات اقبلوا نحو البئر ، فحنوا ظهورهم

وقالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، استغفرا الله . فيرمى الرجال على كل واحد منهم ثلاث دلاء فيغسلونه من رأسه الى قدمه (ص ١١٣ - ١١٤)

ثم يصف السعى بين الصفا والمروة ، وصعود الناس الى عرفات ، والخطبة التي دامت ساعة كاملة ، ونزولهم الى المزدلفة ومنى . وتضحية عشرين الف خروف . ورمى الجمرات ، ثم العودة الى مكة . ويصف حمامات الحرم الشريف . ويقدر عددها بعشرين ألف حمامة ، ويقول ان هذه الحمامات تطير آمنة فى جميع انحاء مكة ، وتدخل حوانيت القمح والأرز وما شاكل من الحبوب ، ولا يتعرض اليها أحد . قال : وانهم ينفقون النفقات الباهظة لتغذيتها . (ص ١١٨) .

وأراد صاحبنا بعد انتهاء الحج أن يسافر الى الهند . لكن كان عليه أن يعود مع حرّاسى القافلة الى دمشق ، بعد أن دخل فى سلك المماليك وتزيا بزبيهم . فاتفق مع أحد أهالى مكة ، فأخفاه فى بيته ثلاثة ايام بعد سفر القافلة فسار الى جدّة . فرأى فيها ، منازل جميلة على طراز منازل ايطالية . وهى مدينة فيها حركة تجارية واسعة وجميع أنواع التجارات فيها بيد المسلمين ، لأن دخولها محظور على النصارى واليهود . وحاكمها أخ للأمير بركات شريف مكة . ولا تخرج البلاد شيئا من المحصولات ، لأن حاجتها الى الماء شديدة . وفى جدّة نحو خمسة آلاف منزل ، واما المرفأ ففيه نحو مئة مركب بين كبير وصغير . ، (ص ١٢٥) .

ومن جدّة أقلع صاحبنا الى اليمن ، ومنها الى جزائر الهند . هذا أهمّ ما ذكره لامنس فى تلخيصه الرحلة . وأعتقد ان فى الرحلة

تفصيلات واسعة عن الاماكن المقدسة لم يشر اليها لامنس .
ونلاحظ ان ماورد فى الرحلة عن هذه الاماكن مملوء
بالاعجاب والثناء .

وقد حاولت الرجوع الى النص الايطالى من الرحلة ، وهو
محفوظ فى مكتبة الجامعة اليسوعية فى بيروت ، فلم استطع بسبب
الحرب الدائرة فى بيروت وضواحيها .

وبعد لودوفيفودى قارتما دخل مكة من الرحالين الأوربيين
عدد كبير ، احصيت منهم أكثر من ثلاثين واحدا .

واعتقد ان من الواجب ان تقوم احدى الجامعات فى المملكة
العربية السعودية ، أو احد المراكز الثقافية فيها بجمع نصوص جميع
رحلات هؤلاء الغربيين الى الجزيرة العربية عامة ، او الى مكة
والمدينة خاصة ، ثم نقلها الى اللغة العربية ، على أن يؤكل تحقيق هذا
المشروع الى علماء يتقنون اللغات المترجم عنها جيدا . ويشاركهم
علماء ذوى اختصاص بخطط الجزيرة وأسماء مدنها واماكنها
وبقاعها . فاذا صدرت هذه الرحلات مترجمة ، على نهج علمى ،
فسيكون لها فائدة فى توضيح بعض النواحي من تاريخ الجزيرة ، منذ
القرن العاشر الهجرى ، الى اواخر القرن الرابع عشر الماضى .